الفصل الثاني

العربية الفصحى.. وكيف تكوَّنت؟

من المعروف أن العرب -لاختلاف قبائلهم، وتعدُّدِ لهجات بطونها- قد اجتمعوا -في جاهليتهم- على أن تكون لهم لغةٌ مثالية ومصطفاه جديرة بأن تكون أداة التعبير عند خاصتهم لا عامتهم، يصوغون بها فنونَ التفكير، ويلتزمونها في المجال الجديِّ من القول، ويلجأون إليها في المناسبات ومواسم الحج والأسواق.

فلما جاء الإسلام قوَّى من تلك الوحدة اللغوية، وشَدَّ من أزرها بنزوله بها، ومع ذلك فقد ظل لكل قوم من قبائل العرب تعبيرُهم الخاص بهم كما كان الحال عليه في الجاهلية[1]، ولكنه كان في هذه المرة أقلَّ عنفوانا وشدة، فقد شجَّع الدينُ الجديد جميعَ العرب على التزام لغة موحدة خوطبوا عن طريقها بنظمه وآدابه وقوانينه.

إلا أنه يجب ألا يُفْهَمَ من ذلك إلزام العرب بما لا يطيقون، أو تكليفهم بما لا يستطيعون، فجميع الدلائل تؤكد على أن الفترة التي سبقت نزول القرآن الكريم بهذه اللغة كانت مواتية لتقبُّل هذا الحدث اللغوى العظيم.

«فلقد نضج الوضعُ اللغوي وأصبح محتاجًا لمن يثبتُ له مزيدًا من التقارب وتشابُكِ العلائق بين جميع لهجات قبائل العرب، ولا يمكن لعاقل أن يفكر في اختلاف اللهجات العربية إلا وفكر في إمكان اتحادِها»[2].

فالشكل الذي قامتْ عليه حياةُ العربي داخل جزيرته كان يدعوه -ولا ريب- إلى التواصل والاجتماع بغيره، وكل ذلك يستدعي تقاربًا لغويًا واندماجًا لهجيًا تتآلف فيه الخصائص المتنافرة وتقل معه الفروق فتتغلب بعضها على بعض لتظهر -

---

(١) صبحي الصالح -مباحث في علوم القرآن ص ١١٤- بتصرف.
وفي اللهجات العربية -إبراهيم أنيس- ص ٤٠.. بتصرف أيضًا.
(٢) الرافعي -تاريخ آداب العرب ٣: ٧١.

مع مرور الوقت- في أقرب صور الانسجام والتلاقي وهو ما حدث لهذه العربية قبل الإسلام.

لذلك لا نستبعد أن يكون قد حدث توحد لهذه اللهجات التي كانت تعيش مع قبائلها في جزيرة العرب على امتدادها وعرضها في فترة من فترات حياتها، ويستوى حينئذ أن تكون قد حدثت قبل نزول الوحي بقليل أو قبله بزمن طويل. إلا أن الأمر كان أكثر وضوحًا بحصول هذا الحدث الإنساني العظيم، فلقد عاشت اللهجات العربية جَنْبًا إلى جَنْبٍ داخل الجزيرة العربية ونقول: إنها قد تقاربت - عبر حقب التاريخ الطويلة- إلاّ أن تقاربًا كالذي حدث بعد ظهور الإسلام لم يحدث فيما حدثنا به اللغويون من آثار هذه اللغة، وإذا كانت العصور التاريخية في هذا الخصوص لا تُقَاسُ أبدًا إلا بأثر الأحداث الإنسانية فقد كانتْ بعثةُ الرسول ﷺ كافيةً لأن تُوَحِّدَ هذه اللهجاتِ في لغة واحدة مشتركة مضتْ عليها فتراتٌ متعددة دون أن تصهرها على هذا النحو الذي ظهرت عليه العربية بعد الإسلام[1].

ومع ذلك نَدَّعي أن لغةً موحدة كانت قد دانت لها قبائلُ العرب في جاهليتها، وصدرتْ عنها آدابُها وفنونُها الرفيعة التي تمثَّلَتْ فيما وصل إلينا من آثار الجاهليين في مدة لا تزيد عن القرنين قبل الإسلام، وظهرتْ بكل جلاء -في لغة القرآن الكريم الذي صوَّر وضعَ هذه اللغة في أتم صورة وأبينها مما لا نجده حتى فيما صح من تلك الآثار المنسوبة إلي العصر الجاهلي..

والباحثون قد اختلفوا في حقيقة هذه اللغة، وإلي أي قبائل العرب تنتمى؟

١- مجموعة ترى: أن هذه اللغة التي كان من أمرها ما كان قبل الإسلام وفُرِضَتْ بعده بعد اقترانها بالدين الجديد: إنما هي لهجة قريش من بين سائر قبائل العرب ويستند هذا القول على آراء قالها القدماءُ وسار على نهجها بعضُ المحدثين:

فمن القدماء:

قتادة «ت- ١١٧هـ»: «الذي ذهب -فيما نقل عنه- إلى أن قريشًا أفصح العرب وبلسانها نزل القرآن الكريم وذلك لأنها كانت تختار أفضل لغات العرب[2].

(١) جسبرسن -اللغة بين الفرد والمجتمع ٦٩ بتصرف- فقه اللغات السامية ٣٠ بتصرف.

(٢) مجلة الدارة ع ١ س ٧ لعام ١٤٠١هـ، ص ١٧٦.

وابن فارس «ت- ٣٩٥هـ»: «إذ يقول: «أخبرني أبو الحسن أحمد بن محمد مولى بني هاشم بقزوين قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن عباس الخشكي قال: حدثنا إسماعيل بن عبيد الله قال: أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالِّهم أن قريشًا أفصح العرب ألسنةً وأصفاهم لغةً، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب، واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدًا ﷺ، فجعل قريشًا قُطَّانَ حرمه وجيرانَ بيته الحرام وولاتهَ، فكانت وفودُ العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش تعلِّمُهُمْ مناسكهم وتحكم بينهم، ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلَها عليهم، وتسميها أهلَ الله؛ لأنهم الصريحُ من ولد إسماعيل -عليه السلام- لم تشبْهم شائبة، ولم تنقلْهم عن مناسبهم ناقلة، فضيلةً من الله -جل ثناؤه- لهم تشريفًا إذ جعلهم رهطَ نبيه الأدنين وعشرتَه الصالحين، وكانت قريش -مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها- إذا أتتْهم الوفودُ من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طُبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصحَ العرب، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة قيس، ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذى تسمعه من أسد وقيس مثل تعلمون ونعلم ومثل شعير وبعير؟»[(١)].

«وقد قال أبو نصر الفارابى في أول كتابه المسمي «بالألفاظ والحروف»: كانت قريش أجودَ العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعًا وأبينها إبانةً عما في النفس»[(٢)].

أما المحدثون: فمنهم طه حسين فقد قال: «أما أن هذه اللغة العربية الفصحى التي نجدها في القرآن والحديث وما وصل إلينا من النصوص المعاصرة للنبي وأصحابه لغة قريش فما نرى أنه يحتمل شكا أو جدالاً، فقد أجمع العرب على ذلك بعد الإسلام، واتفقت كلمة علمائهم ورواتهم ومحدثيهم ومفسريهم على أن

(١) الصاحبى في فقه اللغة: ٣٣، المزهر: ١: ٢١٠.
(٢) المزهر: ١: ٢١١.

القـرآن نزل بلغة قـريش، أو قل على أن هذا الحـرف الذي بقي لنا من الأحـرف السبـعة إنما هو حرف قريش، وقـد يكون من التكلف والتحذق أن يجـمع العرب كافةً على أن لغة القرآن هى لغة قريش، وألا يظهر في العصر الإسلامي الأول ولا في أيام بني أمية ولا في أيام بـني العباس من ينكر هذا أو يجادل فيـه رغم ما كان من الشعوبية الحميرية ومن الخصومات السـياسية بين قريش وغيرها من قبائل مضر ثم يزعـم زاعم أن هذه اللغة ليست لغةَ قريش، وإنما هي لغة قبيلة أخرى مهما تكن هذه القبيلة.

ويقول في موضع آخر: أما أن هذه اللغة العربية الفصحى التي نجدها في القرآن والحديث وما وصل إلينا من النصوص المعاصرة للنبي وأصحابه لغة قريش فما نرى أنه يَحْتَمِلُ شكّا أو جدالاً فقـد أجمع العرب على ذلك. . . ، فنحن مضطرون أمام هذا الإجماع مـن جهة وأمام قريشـة النبي من جهة أخرى وأمـام نزول القرآن في قريش من جهـة ثالثة وأمام فهم قـريش للفظ القرآن في غير مـشقة ولا عنف من جهـة رابعة وأمـام اتفاق القـرآن في اللغة واللهـجة مع ما صح من حـديث النبي القرشي ومن الرواية عن أصحـابه القرشيين من جهة خامـسة إلى أن نسلم بأن لغة القرآن إنما هي لغة قريش. . . وقد سادتْ قُبيلَ الإسلام»[1].

٢- وأخرى ترى: أن هذه اللغـة إنما هي لهجات لبـعض قبائل عربيـة وحّدت بينها تكاليفُ الحيـاة وتكررت لقاءاتُ أبنائها فتوحدت بذلك لغـاتُها لتظهر في هذه اللغة العـربية الفصحى التي نجـدها بأوضح صورة في لغة التنزيل ثم اختلـفوا بعد ذلك في حقيقة لهجات تلك القبائل، ومن هي؟

على النحو التالى:

أ- فمن قائل: إنها ترجع إلى سبع لغـات، خمس بلغة العجز من هوازن وهم الذين يقال لهم: عليا هوازن وهى خمس قبـائل أو أربع منها سعد بن بكر وجشم ونصر بن معاوية وثقيف[2].

---

(١) فى الأدب الجاهلي: ١٠٥- ١٠٦.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة: ٤١.

ب- وذهب أبو عبيدة «ت- ٢٢٣هـ» إلى أن في القرآن لهجات: لهجة قريش ولهجة هذيل ولهجة هوازن ولهجة يمن، ولبعضها نصيب كبير فيه[١].

جـ- ومن قائل: أنها ترجع إلى لغات قبائل مضر خاصة وهي هذيل وكنانة وقيس وضبة وتيم الرباب وأسد بن خزيمة وقريش[٢].

د- ومن قال إنها مزيج مختلط من لهجات تكلم بها أهل نجد والمناطق المجاورة لها كاليمامة غير أن الشعراء قد أدخلوا عليها تغييرات عديدة، وهو مذهب بعض المستشرقين كغويدي، وفيشر[٣].

هـ- وذهب المستشرق بلينو إلى أنها لغة القبائل التي اشتهرتْ بالبراعة في نظم القصيد والتي تردَّدَ إليها النحاةُ وعلماءُ اللغة في الإسلام ليتعلَّموا من أهلها صحة النطق بالحروف أو المعاني الغريبة والشواهد لقواعد النحو وهي قبائلُ معد التي جمع ملوك كندة كلمتَها قبل منتصف القرن الخامس للميلاد، ويرى أن هذه اللهجةَ تولَّدَتْ من إحدى اللهجات النجدية وتهذبت في مملكة كندة وفي أيامها فصارت اللغةَ الأدبية السائدة بين العرب[٤].

٣- وبعضهم يرى: أن هذه اللغة: إنما هي مزيجٌ مختلط من جميع لهجات قبائل العرب شرقيها وغربيها شماليها وجنوبيها ووسطها تلاقتْ جميعُها على صعيد واحد نتيجةَ تلاقي أصحابها بعضهم ببعض بتكرار لقاءاتهم واجتماعاتهم في أسواقهم ومواسمهم وظروف حياتهم المختلفة التي تدعوهم لعقد الصلات والتئامِ الشمل والتغلب على أسباب النزاع ونبذ الخلاف، فالتقت لغاتُهم وتقاربت فيما بينها بعد أن تآكلت الفروق الطفيفة التي كانت تفصلها بعضَها عن بعض، ومع مرور الوقت وتكرار التلاقي تكوَّنت بذلك لغة مشتركة تجمع عناصرها من جميع تلك اللغات وتوحد بين خصائصها، فكانت أَنْ ظهرت في شكل هذه اللغة العربية الفصحى[٥].

(١) مجلة الدارة ع ١ س ٧ لعام ١٤٠١هـ ص ١٧٩.
(٢) صبحي الصالح- مباحث في علوم القرآن ١٠٥.
(٣) مجلة الدارة ع ١ س ٧ عام ١٤٠١هـ ص: ١٨٧.
(٤) مجلة الدارة ع ١ س ٧ عام ١٤٠١هـ ص: ١٨٦.
(٥) إسرائيل ولفنسون- تاريخ اللغات السامية- ١٦٦.

٤- وهناك من قال بالوجهين بناء على ما صح عنده من رأى وأيّدته فيه البراهين والحجج فقالوا مرة: إنها لهجة قريش فحسب، وتوسطوا حينا فبينوا المراد من تلك التسمية «اللغة الحجازية أو القرشيـة» وكشفوا عن بعض الحقيقة -بناءً على ما توفر لهم من أدلة- في أصل وجود هذه اللغة.

فإذا وجـدنا بعضَهم يقـول: «والعربية الـباقية يـرجع تاريخ أقدمهـا إلى القرن الخامس بعد الميلاد على أبعد تقدير، وهي تمثل اللغة في عنفوان اكتمالها وعظمتها بعد أن اجـتازت مراحلَ كـثيرة في التطور والارتقـاء، وبعد أن تغلبت لهـجة من لهجاتها وهي لهـجة قريش واستأثرت بميادين الأدب شعـرها وخطابتها ونثرها في مخـتلف القبائل العـربية، فقـد أتيح للهجات هذه القـبائل المتعـددة فرصٌ كثـيرة للاختـلاط بفضل التجـارة وتبادل المنافع ومجـاورة القبائل العربيـة بعضهـا لبعض وتنقلهـا في طلب الكلأ وتجـمـعـها فـي الحج والأسواق والحـروب الأهليـة. . ، فاشتبكتْ من جراء ذلك اللهجات العربيـة مع بعضها في صراع لغوي كُتب النصر فيه للهـجة قريش، فطغت على جمـيع اللهجات الأخرى في المحـادثة واستأثرت بميادين الأدب شعرها وخطابتـها ونثرها في مختلف القبائل العربيـة فأصبح العربي أيّاً كانت قبيلتُه يؤلف شعره وخطابتـه ونثره الأدبي بلهجة قريش، وقد ساعد على تغلب هذه اللهجة عواملُ دينية واقتصادية وسيـاسية واكتمال ذاتي في مقومات هذه اللهجة وهو مما انعدم بعضه لسواها من اللهجات العربية الأخرى[1].

نجده بعد وقت قصير من تصريحه بمذهبه ذاك يقول:

. . . تضافرت عواملُ كـثيرةُ على النهوض بلغة قريش وتوطيد قـدمها وتمكينها من ألسنة العرب وتوسيع نطاق إنتاجها. . .

فقد أفادت لغة قريش من احتكاكها باللهجات العربية الأخرى آثارًا كثيرة من هذه اللهجات، ونقل إليها طائـفة كبيرة من مفرداتها وأساليـبها وخاصة في النواحي التي كانت تعوزُها، فقـويت بذلك واتسع نطاقها وكمل ما كـان فيها من نقص، وزادت مرونة وقدرة على التعبـير عن مختلف فنون القول، غير أنها لم تقف فى اقـتباسها

(١) وافي: فقه اللغة ١٠٧.

عند الأمور التي كـانت تعوزها، بل انتقل إليهـا كذلك من هذه اللهجات كـثيرٌ من المفردات والصـيغ التي لم تكن في حاجة إليـها لوجود نظائرها في مـتنها الأصلي، وإلى هذا ترجع بعض العوامل في غزارة مفردات هذه اللغة وكثرة مترادفاتها، وورود جمع الكلمة الواحدة فيـها على صيغ متعددة، وقبولها أوزانًا كـثيرة للفعل الواحد، فما أشبه الحالة التي انتهت إليها لغة قريش ببـحيرة امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى مختلفة الطعم واللون انحدرت إليها من جداول كثيرة[1].

وقد تبلـغ به الحيرة منتـهاها عندمـا يقرر: بأنه لا يمكننـا على ضوء معلـوماتنا الحاضرة أن نميز بين ما كان قرشيَّ الأصل، ومـا انتقل إلى لغة قريش من أخواتها لأننا نجهل مـا كانت عليـه لهجة قـريش واللهجـات العربيـة الأخرى في أدوارها الأولى جـهلاً يكاد يكون تامًـا، فلهجـة قريـش لم تصل إلينا إلا وهي متـأثرة بما عداها من اللهجـات العربية التي قهرتْها، وهذه اللهـجات لم يصل إلينا منها شيء قبل تغلب لهجـة قريش عليها، ولم يبق منها في المحادثة بعـد تغلب هذه اللهجة عليها إلا النزر اليسير»[2].

أيقنا -بعـد التدقيـق في مراده- أنه يقصـد بلهجـة قريش هذه تلك اللغـة التي استقرت في نـواحي الحجاز قبيل ظهور الإسـلام، والتي اصطنع بها ما وصل إلينا من آثار في العصر الجاهلي، بعد أن ضاعت معـالم هذه اللهجة القرشية الأصلية، واختلطت في خضم هذا الزخم الهـائل من اللهجات العربية الوافدة عـلى القرشية في عُـقْر دارها، فـأقـبل القوم يصنفـون ويوائمـون ويخـتارون ويهـذبون ويدنون ويقصون إلى أن تكونت هذه العربية الفصحى، وشاعت في بلادهم، ولو لم يكن لقريش من فضل فيها سوى الانتـقاء والاصطفاء لحُقَّ لها أن تُنْسَبَ إليها تجاوزا ولو لم تكن هي لغتها الأصلية.

وعلى هذا يحـمل قوله على القـبول وإن فـاته النص على ذلك، والاضطراب نفسـه نجده أيضًـا عند من ذهب إلى «أن لغة قـريش قد أتيح لـها أن تَتَبَـوَّأَ المكانةَ

(١) وافي- فقه اللغة: ١١٤.

(٢) وافي- فقه اللغة: ١١٦.

الأولى بين اللهجات العربية الشمالية فأصبحت هي الفصحى المقصودة عند الإطلاق وقد زادها نزول القرآن بها مكانة ومجداً»[1].

«وأن العرب حين استصفوا لهجة قريش وجعلوها لغتهم الأدبية المشتركة أثروا فيها مثلما تأثروا بها، فصدق على لهجة قريش ما يصدق على كل اللغات من قوانين التأثر والتأثير... وطبيعي أن تُتَّخَذَ لغةُ الحجاز مقياساً للفصاحة وقد بلغت من الرقي داخل الجزيرة العربية مبلغًا حميداً حين خلت من مستقبح اللغات ومستهجن الألفاظ، إن الباحث يكاد يرى هذا المقياس صحيحًا لا مغمز فيه بل بديهيًا لا مسوغ لرده[2].

إلا إننا نجده يصرح: بأن العربية -بصورتها الحالية- قد أسهمت في تكوينها اللهجات العربية قاطبة...، فظاهرة التأثر بين اللهجات الصحيحة المسموعة من العرب قد آلت بالفصحى إلى ضرب من التوحد في الخصائص، والتماثل في السمات والملامح، حتى لكأن هاتيك اللهجات وهي في طريقها إلى التلاقي والتقارب لم تك إلا جداول تجري رخاء في مسالكها ثم تنتهي باطمئنان إلى الانصباب في نهر واحد غزير قادها نحو دليل لا يضل ولا ينسى[3]...، فإن هذه الخصائص لا تميز لغة قريش لذاتها بل لتمثُّلها خيرُ ما في اللهجات العربية الصحيحة بالتوليد والاشتقاق وخير ما في اللجهات الأجنبية بالنقل والتقريب[4]...، ونحسب أنه ليس من البحث الموضوعي في شيء أن نرى في استصفاء لغة قريش أن القرآن نزل بها، ففي القرآن من لهجات العرب الأخرى ألفاظ غير قليلة...، ولغة القرآن بعد هذا حين يقال: إنها لغة الحجاز أو قريش هي اللغة نفسها التي نُقلتْ بها أشعارُ العرب وخطبُهم وأشعارهم، ولقد صادف القرآن هذه اللغة الراقية المهذبة فزاد من ترقيتها وتهذيبها، فهذا معنى نزوله بلغة قريش»[5].

---

(١) صبحي الصالح -دراسات في فقه اللغة: ٧٢.

(٢) صبحي الصالح- دراسات في فقه اللغة من ١٠٩- ١١١.

(٣) نفسه ١٠٤- ١٠٥.

(٤) صبحي الصالح- دراسات في فقه اللغة ١٠٩.

(٥) دراسات في فقه اللغة: ١١١.

والحكمة في ذلك إنما هي تخفيف وتيسير على هذه الأمة التي تعدَّدَتْ قبائلها فاختلفت لذلك لهجاتها وطريقة نطقها، أما لغاتها نفسها فلا موجب لمراعاتها لأن القرآن اصطفى ما شاء بعد أن صهره في لغة قريش التي تمثلت فيها لغات العرب قاطبةً لا لغات قبائل معينة ينتصر لها بعض العلماء بتعسف لا يؤيِّده دليل عقلي ولا نقلي[1].

ويبدو -لي- أنه كسابقه لم تَقُمْ عنده فكرة التفريق بين عربية فصحى مشتركة استقتْ روافدَها من كل لهجات قبائل جزيرة العرب وأجادتها الطبقة المفكرة في تلك الآونة وبين لهجة خاصة كانت شائعة في جهات مكة وما حولها من بلاد الحجاز فاعتبرها صورةً واحدة، وقال بذا مرة وبذاك أخرى.

ما تقدم هو بعض ما قيل في حقيقة تلك اللغة العربية المشتركة التي سميت -فيما بعد- بالعربية الفصحى، وكل منها يقوم على مجموعة من الحجج ويستند على جملة من الحقائق، غير أن بعضها لا يمكن الركونُ إليه في الاهتداء إلى حقيقة هذه اللغة العربية الفصحى، ولا كيف تكوّنَتْ، فقد أصبح البحث عن ذلك ضربًا من المحال بعد أن ضاع من مراحل العربية الأولى ما قد يهدينا إلى جذورها وأصولها القديمة ووصلتْ إلينا ناضجةً كاملة متمثلة في لغة القرآن الكريم وما صحَّ من آثار الجاهليين التي لا تتجاوز في تاريخها قرنًا ونصفًا قبل الإسلام.

بيد أن مما لا يمكنني أن أجادل في إمكان حصوله أن العرب كانوا قبل ظهور الإسلام شعوبًا وقبائلَ مختلفة ولكل منها لهجتُها الخاصة بها وعاداتُها الكلامية التي تلتزمها في النطق وطريقة الأداء، «ورغم تلك اللهجات نرى أنه قد يحدث توحُّدٌ بين لهجات القبائل العربية فتتكوَّنُ لهم لغة نموذجية أدبية مشتركة تشمل جميع البيئات اللغوية، ويحاول أبناء الأمة إجادتَها وإتقانها، وكلما تمكَّنَتْ منها الألسنةُ ازداد شيوعها، ويتبع ذلك انكماش في اللهجات الأخرى واقترابُ بعضها من بعض فلا يبقى من خصائصها على مرور الزمن إلا القليل[2]، وتلك اللغة

(١) صبحي الصالح- مباحث في علوم القرآن: ١١٣.

(٢) إبراهيم أنس- من أسرار اللغة: ٣٧ بتصرف.

النموذجية هي التي التزمتْها الطبقة المفكرة من أمة العرب في المجال الجديِّ من القول، وعن طريقها وصل إلينا بعضُ الآثار الأدبية من شعر ونثر جاهليين.

وهذا ما يؤكد أن الإسلام حين ظهوره قد «صادف لغة مثالية مصطفاة جديرة أن تكون أداة التعبير عند خاصة العرب لا عامتهم، فزاد من تلك الوحدة وشدَّ من أزرها بنزول قرآنه بلسان عربي مبين[1].

ومع ذلك ظلت آثارُ لهجاتهم الخاصة بهم عالقةً بألسنتهم يتحامونها -قدر الإمكان- ولو في المجال الجديِّ من القول، واستمر الحال على تلك الصورة طيلة قرن ونصف قبل الإسلام وهي الفترة التي جاءتنا أنباؤها وقبل ذلك أيضًا مما لا نعلم عنه إلا مجرد الظن، لكننا مع ذلك نظل معتقدين بأن ما تحقق لهذه اللغة في فترتها التي علمنا من أخبارها شيئًا عنها لابد أن قد تحقق لها أيضًا في فترات مضت متى توافرت دواعيه، فما اجتمع هؤلاء القوم من قبائل مختلفة في مكان واحد كالحج والأسواق والمنتديات وأماكن المحاكمات وفصل المنازعات إلا وكانوا مضطرين إلى استعمال لغة عامة يفهمها جميعهم ويعبرون بها عما يريدون قوله وقد فصلنا القول عن ذلك فيما سبق من الحديث.

****

(١) مباحث في علوم القرآن ١١٤. بتصرف.

مظاهر اختلاف اللهجات العربية

مما انتهى إلينا من كلام العرب نرى أنه قد توزَّع من حيث فصاحتُه وشيوع استعماله بين جميع العرب أو اختصاصه ببعضهم دون بعض إلى أقسام:

أحدها- اتفق جميع العرب على فصاحته بعد أن اشتركوا -ولا سيما الخاصة منهم- في وضعه -كما بيّنا سابقًا- بحيث أصبح مقياسًا للغة الفصحى، وبمقدار القرب منه أو البعد عنه يكون مبدأ التفضيل والحكم لهذا القول أو ذاك بالفصاحة أو عدمها، ومن أجل ذلك التزمه الفصحاءُ من العرب في المجال الجديِّ من القول، وصاغوا به فنونَ التفكير عندهم، ولجأوا إليه في المناسبات والمواسم التي كانت تجمعُهم على صعيد واحد، وهذه هي العربية الفصحى وإليها ينصرف الكلام العربي الفصيح إذا أطلق من غير نسبة إلى قبيلة بعينها.

ثانيًا- استعمالات هي في الحقيقة خاصة ببعضهم إلا أنه كثُرَ الذين يتكلمون بها فدخلتْ ضمن الفصيح من كلامهم، فقد أدَّى تفرقُ قبائلهم في أنحاء عديدة من شبه الجزيرة العربية مع احتفاظهم بعاداتهم الكلامية وطرائقهم الخاصة في النطق، إلى جانب مسايرة الاستعمال العام الذي التزمه فصحاء العرب إلى تساوي الأمرين عندهم بحيث إن اتباع أحدهما جارٍ في الفصاحة مجرى الآخر، فلكل منهما قياس متَّبع لاسيما وأن أصحاب هذا الفصيح عدد كثير وخلق من الله عظيم، وإنما يقاس بقاء اللغة وانتشارها -عادة- ببقاء وكثرة أعداد من يستعملها.

ثالثًا- استعمالات نُصَّ على أنها خاصة بقبيلة بعينها درجت عليها والتزمتها في حديثها العادي وشئونها اليومية فإذا ماجَدَّ الجِدُّ تخلوا عنها ليلتزموا اللغة النموذجية ويسيروا على نهجها في مخاطباتهم سواهم من قبائل العرب إذا ما جمعتْهم بهم

المجامعُ، ولكن يحدث أحيانًا أن تطرأ عليهم فى أثناء ذلك بعض سماتهم اللهجية التي يلتزمونها فيما بينهم داخل بيئاتهم، فجاءت مبعثرةً هنا وهناك.

وجامعوا لغة العرب عندما بدأوا يجمعونها لم يفرقوا بين استعمال شاع عند كل قبائل العرب وبين مظهر لهجي اختُصَّتْ به قبيلةٌ بعينها ولم يأخذ طابعَ الشيوع وكثرةَ الاستعمال إلا نادرًا.

ويبدو أن ذلك لم يكن في مقصودهم البحث عنه وتمييز مظاهره وإنما كان همُّهم جمع اللغة كيفما اتفق، ومع ذلك فما أهملوا قط في الإشارة إليه والنص على أصحابه كلما دعت الحاجة إلى ذلك، فحظينا من وراء ذلك على عدة مظاهر لهجية ساقوها لنا في مناسبات اقتضتْها وأخرى جاءت عرضًا في قصة تُحكى أو رواية أُخِذَتْ عن بعضهم.

ومن تلك المظاهر اللهجية ما يتعلق بالنواحي الصوتية والصرفية، والنواحي النحوية والدلالية أيضًا.

ففي النواحي الصوتية نجد:

- ظاهرة تحقيق الهمز وتسهيله:

فقد نقل سيبويه: «أن بني تميم يحققون الهمز حيث أتى، ويسهل بعض الحجازيين الهمزة، ويبدلونها من جنس حركة ما قبلها»[(١)].

وفصّل أبو زيد هؤلاء القوم فذهب إلى «أن أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون، ووقف عليها عيسى بن عمر فقال: لا آخذ من قول تميم إلا بالنبر، وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا[(٢)].

وبالهمز قرأ نافع في كل من «النبي، ونبي، والنبيين، والنبيون، والصابئين، والصابئون»[(٣)].

---

(١) الكتاب ٢: ١٦٣.

(٢) ابن منظور- لسان العرب ١: ١٤.

(٣) شرح الشاطبية ١٥١، الإتحاف ١٣٨.

وقرأ عاصم «إن يأجوج ومأجوج» بالهمز فيهما، وقرأوا إلا حمزة «هزؤا» حيث وقع، و«كفؤا» بالهمز فيهما وصلا ووقفًا[١].

وقرأ ابن كثير المكي بالهمز في قوله تعالى «قسمة ضيزى»[٢]. وبالهمز قرأ الكوفيون وأبو عمرو وابن كثير: سأل سائل: «بهمزة مفتوحة بعد سين «سأل»[٣].

وقرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة وخلف وحفص بالهمز في «نار مؤصدة»[٤].

وحقق ابن عامر ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وروح في مواضع «أئمة» فى القرآن[٥].

وحقق الكوفيون وابن عامر وروح الهمزة الثانية فى قوله تعالى «أإنا لتاركوا» و«أأنك لمن» و«أإذا» وحقق القراء غير نافع وابن كثير وأبى عمرو وجعفر ورويس «أأنزل عليه الذكر» «أألقى الذكر عليه»[٦].

وبالتأمل فيمن نُسِبَتْ إليه ظاهرةُ التحقيق من هؤلاء القوم نرى أن معظمهم كانوا من قرَّاء الكوفة وبعض قراء الحجاز ونحن نعلم أن الكوفة كانت متأثرةً بقبائل وسط وشرقى الجزيرة وهم ممن أُثِرَ عنهم تحقيقُ الهمز.

أما من حقق من الحجازيين -وهم أقلية- كابن كثير فى بعض طرقه، ونافع المدنى فيما روى عنه فيبدو أن قراءاتهما قد جاءت تحقيقا للهجة مكة وبعض أهل الحجاز من يميلون إلى همز بعض الكلمات[٧].

أما المُسَهِّلُون من العرب: فكانوا يميلون إلى إبدال هذه الهمزات حروفَ مد من جنس حركات ما قبلها أو حذفها، وبإبدال الهمزة الساكنة ياء أو واوا أو ألفا بعد كسر أو ضم أو فتح قرأ أبو جعفر المدنى فى نحو: يُؤمِنُونَ -وَبِئْسَ - فَأْتُوهَنَّ وكل ما جاء من ذلك سوى أحرف قليلة.

---

(١) شرح الشاطبية ١٥١.

(٢) النشر ١: ٣٩٤ وما بعدها، الإتحاف ٤٠٣.

(٣) شرح الشاطبية ٢٩٦.

(٤) النشر: ١: ٣٩٥، الإتحاف ٤٤٣.

(٥) الإتحاف. ٥٠.

(٦) النشر: ٣٧٤.

(٧) أبو زرعة -حجة القراءات ٥١ وما بعدها -تحقيق سعيد الأفغانى.

وكان أبو عمرو إذا قرأ فى الصلاة أو أدرج قراءته أو قرأ بالإدغام لهم يهمز كل همزة ساكنة سواء كانت فاء أو عينا أو لاما إلا أن يكون سكون الهمزة للجزم[١].

وقرأ باقي القراء غير عاصم بغير همز في «يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» وقرأ حفص «هُزُوًا» فى «هزؤا» بالإبدال حيث وقع من القرآن[٢].

وقرأ أبو جعفر المدنى: بحذف الهمز مع ضم ما قبلها فى نحو: مُسْتَهْزِئُونَ والصَّابِئُونَ، وَمُتَّكِئُونَ، وَمَالِئُونَ، وَلِيُوَاطِئُوا، وَيُطْفِئُوا، وَقُلْ اسْتَهْزِئُوا، وما إلى من ذلك[٣].

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر «سال» بألف، قال الزمخشرى: هى لغة قريش يقولون: سلت تسال وهما يتسايلان، ورووا عن حسان المدنى:

سَالَتْ هُذَيْلٌ رَسُولَ اللهِ فَاحِشَةً ظَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ

بإبدال الهمزة من «سأل» حرف مد[٤].

ويذهب بعضهم إلى أن إبدال الهمزة من «اللاَّئِي يَئِسن» ياء في قراءة البزى وأبي عمرو إنما جاء على لغة لقريش[٥].

وقرأ الحرميان وأبو عمرو وهشام بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية من قوله تعالى: ﴿**أأنذرتهم أم لم تنذرهم**﴾ وهى لغة أهل الحجاز الذين لا يرون الجمع بينهما «الهمزتين» طلبا للتخفيف[٦]، وسهل نافع المدنى وأبو عمرو وابن كثير المكى وأبو جعفر ورويس الهمزة الثانية من مواضع «أَئِمَّة» فى القرآن[٧].

وكذا رووا عنهم فى تسهيل الهمزة الثانية[٨] من ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا﴾ [الصافات: ٣٦] «أَإِنَّكَ لَمِنَ» و«أَإِذَا» وهو مذهبهم أيضا فى تسهيل الثانية من

---

(١) النشر ١: ٣٩ وما بعدها، التجهيز والتيسير ٥٨ ومابعدها.

(٢) الاتحاف ١٣٨.

(٣) النشر ١: ٣٩٧.

(٤) الاتحاف ٤٢٣، شرح المفصل ٩: ١١٤.

(٥) النشر ١: ٤٠٤، الاتحاف ٤١٨، البحر ٧: ٢١١.

(٦) النشر ١: ٣٦٣، البحر ١: ٤٧.

(٧) النشر ١: ٣٧١.

(٨) نفسه ١: ٣٧١.

﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [ص: ٨] و﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾ [القمر: ٣٥] وجميع من ذكرناهم من هؤلاء القُرَّاء غير حفص ورويس هم من قراء الحجاز[١]، وهى ممن عُزِيَ إلى أهلها تسهيلُ الهمز وتليينُه.

ولعل ميل أهل البادية إلى الأصوات الشديدة الجلدة هو الذى دفعهم إلى تحقيق الهمز كالذى عرف فى نطق قبائل وسط الجزيرة وشرقيِّها حيث إن الهمزة صوتٌ حنجرى انفجاري وهو مما يناسب البيئةَ البدوية في حين أن أهل المدن وسكان الحواضر يميلون بطبعهم إلى الأصوات اللينة.

ظاهرة الاختلاف فى حركات الكلمة:

ويمكن النظر إليها من زاويتين:

١- الاختلاف فى بنية الكلمة:

ومن ذلك نحو ماجاء فى لهجة قيس في رِفْقَة، وسائر العرب على رُفْقَة[٢] ونسب إلى هذيل أنهم يقولون «نِعِم» فى «نعم» وهي لغة سائر العرب[٣].

كما عُزي إلى كنانة وأشياخ قريش أنهم يقولون: «نَعِم» فى «نَعَم» وفتح النون والعين لغة باقي العرب[٤].

وقال أبو الفتح: نُشْرًا تخفيف «نُشُرا» في قراءة العامة، والتثقيل: أفصح لأنه لغة الحجازيين والتخفيف فى نحو ذلك لتميم[٥].

ونقل سيبويه أن بكر بن وائل وناسا كثيرا من بني تميم يقولون في نحو: فَخِذ وكَبِد وعَضُد وكَرُم وعَلِم: فَخْذ وكَبْد وعَضْد وكَرْم وَعَلْم[٦]..

ويعتقد أن منه قراءة أبى عمرو: ورسْلنا ورسْلكم ورسْلهم وسبْلنا»[٧].

بإسكان السين والباء فى الجميع.

---

(١) ابن الجزرى -التحبير والتيسير: ٢١٦، حجة القراءات: ٥٤.
(٢) المخصص ١٥: ٩٢.
(٣) التحبير والتيسير ٩٤، الكتاب ٢: ٤٠٨.
(٤) شرح كلا وبلى ونعم: ١٠٧ وما بعدها.
(٥) ابن جنى - المحتسب ١: ٢٥٥.
(٦) الكتاب: ٢: ٢٥٧ وما بعدها.
(٧) التحبير والتيسير: ٩٥.

وقالوا: الصِّرْع لغة قيس، والصَّرْع لغة تميم[1].

وقالوا: وَجْنَة، ووُجْنَة، ووِجْنَة عن أهل اليمامة[2].

والعرب تقول: سَمٌّ، وسُمٌّ الخياط، قال يونس: إنها لغة أهل العالية[3].

و«الوِتْر» بكسر الواو في العدد هي لغة أهل الحجاز وبني تميم وبها قرئ في السبعة، والفتح فيها لغة أهل العالية وسائر العرب[4].

٢- الاختلاف فى بناء الكلمة:

ومن الثانية نحو ما ورد من اختلاف لهجات العرب فى هُوَ وهِيَ ففتح الواو والياء فيهما لغة جمهور العرب، وبذلك قرئ في السبع[5] إلا أنه قد حكى عن قيس وأسد أنهما يسكنان الواو والياء فيهما[6].

أنشد قطرب:

وكُنَّا إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ كَرِيهَةٌ فَقَدْ عَلِمُوا أني وَهُوْ فَتَيَانِ

وقال آخر: حَبَّذَا هِيْ مِنْ خُلَّةٍ لَوْ تُحَابِي

وهمدان تشدد آخرهما[7] أنشد قطرب:

وَإِنَّ لِسَانِي شَهْدَةٌ يُشْتَفَى بِهَا وَهُوَّ عَلَى مَنْ صَبَّه اللهُ عَلْقَمُ

وقول الآخر: وَهِيَّ مَا أُمِرَتْ بِاللُّطْفِ تَأْتَمِرُ

وقريب من ذلك ما ورد في بعض الأسماء الموصولة نحو: الذي والتي[8].

فالذى عليه جمهور العرب إثباث الياء فيهما ساكنة إلا أنه قد ورد عن بعض العرب تشديد الياء فيهما[9]، ومن ذلك قول الشاعر:

---

(١) المخصص ١٥: ٧٤.
(٢) نفسه ١٥: ٩٣.
(٣) نفسه ١٤: ٢١٨.
(٤) الإتحاف ٤٣٨.
(٥) النشر ٢: ٢٠٩. سراج القارئ المبتدئ ٣٤٩.
(٦) الهمع ١: ٦١، التسهيل ٢٦.
(٧) الهمع ١: ٦٠، شرح المفصل ١: ٩٧، شرح الكافية ٢: ١٠.
(٨) التسهيل ٣٣.
(٩) الإنصاف ٢: ٦٧٥.

قال العجاج:

بعد اللتيا التي والتي ... دافع عني بنقير موتتي

وقال آخر:

وَلَيْسَ المَالُ فَاعْلَمْهُ بِمَالٍ ... -وَإِنْ أَغْنَاكَ- إلاَّ لِلَّذَيّ

يُرِيْدُ بِهِ العَلاَءَ وَيَصْطَفِيْهِ ... لأَقْرَبِ أَقْرَبِيْهِ ولِلْقَصِيّ

ومن حذف الياء فيهما قوله[1]:

فَظَلْتُ فِي شَرٍّ مِنَ اللَّذْ كِيْدَا ... كَاللَّذْ تَزَبَّى زُبْيَةً فَاصْطِيْدَا

وقال قيس العكلي[2]:

وامْنَحْهُ اللَّتْ لاَ يَغِيْبُ مِثْلُهَا ... إذَا كَانَ نِيْرانُ الشِّتَاءِ نَوَائِمَا

٣- ظاهرة التوافق الحركي:

ولعل أهمَّ ما يمثل ذلك ما عُرفَ عن ظاهرة الإمالة في لهجات بعض القبائل العربية ولا سيما البدوية منها فقد أدَّتْ رغبتُهم في سرعة النطق إلى نشأة ضرب من تجانس أصوات الكلمة وتناسبها[3]، وذلك لأن اللسان يرتفع بالضم وهو يقتضى تصعدا واستعلاء وينحدر بالإمالة والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع فإذا أملت الألف قربت من الياء وامتزج بالفتحة طرف من الكسرة فتصير الألف من نمط واحد في التسفل والانحدار[4]، ومن ثمَّ أمال حمزةُ والكسائى وخلف فى قراءات القرآن كلَّ ألف منقلبة عن ياء حيث وقَعَت فى كتاب الله سواء كانت فى اسم أو فعل[5].

---

(١) الخزانة ٢: ٢٩٨.

(٢) الأزهية ٣٠٣.

(٣) من بحث للدكتور: عبدالغفار هلال عن تفسير بعض مشكلات الفصحى -مجلة كلية اللغة العربية ع ٦ ص ١٥٠.

(٤) النشر ٢: ٣٥، سر الصناعة ١: ٥٨.

(٥) النشر ٣: ٣٥.

ووافقهم أبو عمرو من جميع مـا تقدم على ما كان فيه راء بعدها ألف ممالة بأى وزن كان بل أكثروا من ذلك فأمال الكسائى كل ما كان قبله هاء التأنيث وقال: إنها من طباع العربية[١].

وقد أُلِفَتْ هذه الإمالةُ عن قبائل شرقيِّ الجزيرة ووسطها فهي لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس ومن وراءهم[٢]، ووجدت في كلام أكثـر أهل الأمصار لأنها خفيفة على لسانهم سهلة في طباعهم.

ومن التناسب بين الأصوات ما يعمد إليه بعضُ العـرب من إشمام الضمة كسرةً والكسـرة ضمة في بـعض ما روي عنهم فـقد ضم كـثيرٌ مـن قيس وعقـيل ومن جاورهم وعامة بنى أسد أوائل عين الفعل اليائى العين نحو:

قِيْلَ، غِيْصَ، حِيْلَ، سِيْءَ، سِيْئَتْ، جِيْءَ، سِيْقَ.

وهى قراءة الكسائي وهشام وافقهما نافع وابن ذكوان في سِيْءَ، وَسِيْئَتْ، وزاد ابن ذكوان حِيْلَ[٣].

وأخلصت حـركات أوائل بعض هذه الأفـعال الـثلاثيـة التي عينهـا واو أو ياء فقلبت واوا فى مثل: بِيْعَ، حِيْكَ، وأنشدوا:

لَيْتَ وَهَـلْ يَنْفَعُ شَـيْـئًـا لَيْتُ لَيْتَ شَـبَـابًا بُوعَ فَـاشْـتَـرَيْتُ

وقال آخر:

حُـوكَـتْ عَلَى نِيْـرَيْنِ إِذْ تُـحَـاكُ تَخْـتَـبِطُ الشَّـوْكَ وَلاَ تُشَـاكُ

وقد عُزِيَتْ إلى هذيل وبني فقعس وبنى دبير[٤].

ولعله لضـرب من هذا التـجـانس وذلك التناسب بين أصـوات بعض حـروف الكلمة ما نراه من إتباع بعض الحركـات لبعض فى منطق قوم من العرب، إمّا لأن الإتباع أخفُّ على اللسان من جهة النطق وإمَّا لِسَبَبٍ آخر كأنه يكون خشيةَ الانتقال من وضع كان اللسان فيه إلى وضع آخر سيصيـر إليه فقد نقل سيبويه عن بني أسد

(١) النشر ٢: ٤٠

(٢) من بحث عن بعض مشكلات الفصحى د.عبدالغفار هلال نشر بمجلة كلية اللغة العربية ع ٦ ص ١٥٠.

(٣) البحر ١: ٦١.

(٤) شرح التصريح: ١: ٢٩٥، البحر ١: ٦١.

وبني تميم أنهم يقولون: اضْرِبِ ابْنَكِ فحركوا الباء وهو غير متحرك تقريبا له من حركة الهمزة المكسورة وأتبعوا حركة الراء المضمومة لحركة الدال المكسورة كراهية للضمة بعد الكسرة لأنه ليس من الكلام فِعُل فقالوا: الرِّدِى فى الرِّدُؤ، وقالوا: من البُطُؤ، ورأيت البُطُؤ، فقربوا حركة الطاء من الباء لأنه ليس في الكلام «فُعِل» وقد نسبوا ذلك إلى بعض تميم»[١].

وأتبع ناس من بكر بن وائل الكسرة الكسرة حيث كانت حرف إضمار وكان أخف من أن يُضَمَّ بعد أن يكسر وهي رديئة، قال سيبويه سمعنا أهل هذه اللغة يقولون:

وَإِنْ قَالَ مَوْلاَهُمْ عَلَى جُلِّ حَادِثٍ مِنَ الدَّهْرِ: رُدُّوا فَضْلَ أَحْلاَمِكِمْ رَدُّوا

كما نسب إلى قوم من ربيعة أنهم يقولون: مِنْهِمْ ضمة الهاء كسرة إتباعها لكسرة الميم حين لم يكن المسكن حاجزًا حصينًا[٢].

وعزي إلى بعض تميم أنهم يقولون: رُدُّه في رده فأتبعوا حركة الدال لحركة الهاء المضمومة[٣].

٤- إبدال بعض أصوات الكلمة من بعض:

فقد يميل بعض العرب تحت تأثير الرغبة في بيان الصوت ووضوحه إلى إبدال صوت مجهور من آخر مهموس، وشديد من رخوى وصائت من صامت.. إلخ.

نقل عن بعضهم أنهم يقولون: أَفْعَيْ في أَفْعَى، وحُبْلَيْ في حُبْلَى، وكذلك كل ألف في آخر الاسم.

وتقول فزارة وناس من قيس وبعض طيء: أَفْعَوْ في أَفْعَى بقلب الألف واوا[٤].

وتقول تميم في الوصل هذِيْ فلانة بإبدال الهاء ياء وناس من بني سعد يبدلون الجيم مكان الياء في الوقف وذلك لخفاء الياء عندئذ فيقولون: علج وعربانج وفقيمج.. في علي وعرباني وفقيمي[٥].

---

(١) الكتاب ٢:٢٨٦.
(٢) الكتاب ٢: ٢٦٤.
(٣) الكتاب ٢: ٢٦٢.
(٤) الكتاب ٢: ٢٨٧.
(٥) الكتاب ٢: ٢٨٨.

وناس من تميم وربيعة يبدلون مكان الكاف المؤنثة شينا فيقولون: انش ذاهبة. وبعض أهل اليمن يجعلون الكاف مطلقًا شينا[1].

ونسبوا إلى تميم أنها تقلب العين من نحو «مَعْهُمْ وَمَعْ هؤُلاَءِ». حاء فيقولون: محُّم، ومحَّاؤلاء[2].

وبالمقابل نسبوا إلى هذيل قلب الحاء عينا في «حتى»[3].

وقد قرأ بها ابن مسعود في «حَتّى حِينٍ».

ونجد قيسا وتميما تقلب الهمزة المبدوء بها عينا فيقولون:

عَنَّكَ في «أَنَّكَ»، وعَسْلَمَ في «أَسْلَمَ»، وعُذُنٌ في «أُذُن»[4].

ومن ذلك الاستنطاء أيضًا وهو في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأمصار تجعل العين الساكنة نونًا إذا جاورت الطاء كأَنْطى في أَعْطَى[5].

وبالتأمل فيمن نسبت إليهم هذه الظاهرة نرى أنها قد عزيت إلى قبائل بدوية اتخذت من الصحراء موطنًا لها وهي أميل إلى إيضاح الأصوات والجهر بها.

٥- ظاهرة المماثلة بين بعض أصوات الكلمة:

وتميل بعض اللهجات العربية ولاسيما البدوية منها إلى المماثلة بين بعض أصوات الكلمة، فَيُبْدَلُ لأجل الحرف المجاور أَشْبَهُ الحروف به مخرجًا، ومن ذلك مثلاً قول بني العنبر من تيم: صُقْتُ وصَبَقْتُ والصَّمْلَقُ في سقت وسبقت والسملق، وما ذلك إلا لأن القاف من أقصى اللسان وتتصعد إلى الحنك الأعلى فأبدلوا من موضع السين أشبهَ الحروف بالقاف ليكون العملُ من وجه واحد وهي الصاد لأن الصاد تصعَّد إلى الحنك للإطباق، وهذا شائع في لهجة هؤلاء مع الطاء والغين والخاء أيضًا إذا وقعت بعد السين أَنّى كان مَوْقعُها من الكلمة أثانية أم ثالثة أم رابعة إذا كنَّ بعدها فيقولون: صَلَخَ، وصَاطِع، وَصَالِغ في سلخ، وساطع، وسالغ[6].

---

(١) شرح الكافية ٢: ٤٠٩، الصاحبي: ٣٤، المزهر ١: ٢٢١ وما بعدها.

(٢) الكتاب ٢: ٤١٣.

(٣) المزهر ١: ٢٢٢.

(٤) نفسه ١: ٢٢١ وما بعدها.

(٥) نفسه ١: ٢٢٢.

(٦) الكتاب ٢: ٤٢٧ وما بعدها.

وماثل بعض فصحاء العرب بين الزاى والدل فأبدلوا من الصاد إذا أتت بعدها دال زايا فقالوا: زَدَقَ، وفَزَدَ، ومزدر في صدق وفَصَدَ ومَصْدَر، ولعل ما دعاهم إلى أن يقربوا الصاد ويبدلوها زايا هو المماثلة بين الزاى والدال وحتى يكون عملهم من وجه واحد وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد[1].

ويمكن أن يلحق بذلك ما عمد إليه بعض العرب رغبة في التماثل حين أبدلوا من تاء ضمير الفاعل إذا وقعت بعد الدال والزاى دالاً في نحو: جَلَدٌ من جَلَدْتُ، وجُزْدُ في جُزْتُ[2].

****

(١) الكتاب ٢: ٤٢٦.

(٢) تاج العروس: ٢: ٢٨٦.

النواحي الصرفية

١- الاختلاف في وزن الكلمة العربية:

اختلف منطق قبائل العرب في «فَعَلَ وَأَفْعَلَ» فاستعمل بعضُهم «فعل» واستعمل آخرون «أفعل» وتعاوروا إحدى الصيغتين في التعبير عن الأخرى في بعض الأحيان.

فقد ورد عن أهل الحجاز أنهم يقولون: أَسْرَى بالألف على حين أن غيرهم من العرب يقولون: سَرَى مجرداً[١]، وبلهجة الحجاز جاء قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾ [الإسراء: ١] وبلهجة سائر العرب ورد قوله تعالى: ﴿**والليل إذا يسر**﴾ ومرج لغة أهل الحجاز، وأما أهل نجد فإنهم يقولون: مرج، وبلهجة أهل الحجاز جاء قوله تعالى: ﴿**مرج البحرين يلتقيان**﴾[٢] وألاته لغة تميم، وأهل الحجاز يقولون: لاَتَهُ بغير ألف. وَغَدَرْتُ الصَّبِيَّ: إذا ختنته -لغة أهل الحجاز، وغيرهم من العرب يقولون: أَغْدَرْتُهُ[٣].

ويترتب على ما أورد بعضه هنا -وما سنستقصي أكثره في موضعه من القسم الثاني من المبحث- بروز اختلافات في بنية الكلمة الصرفية فمن يقول أَضَاءَ في ضَاءَ القمر محتاج إلى زيادة الألف في صيغة الفعل «فعل» وهذا بخلاف من لغته ضاء مجردة منها.

٢- الاختلاف في إبدال حركات الكلمة:

وهو من نوع الاختلاف الذي يؤدِّي -كسابقه- إلى تَغَيُّرٍ في وزن الكلمة الصرفي كقول هذيل: جَوْزَات، وبَيْضَات بسكون العين فيهما[٤].

---

(١) الفيومي -المصباح المنير ١: ٣٢٤.

(٢) البحر المحيط ٨: ١٩٠، ٦: ٤٧٨.

(٣) المزهر ٢: ٢٧٦، المخصص: ١٥: ٢٤٤.

(٤) الكتاب: ٢: ٢٨٧.

ومن العرب قوم من بنى تميم وبكر بن وائل يسكنون عين الكلمة في نحو: عَلِمَ، وشَرُفَ، وفَخِد، وعَضُد... قصدًا إلى التخفيف لثقل الانتقال من حركة إلى أخرى أثقل منها[1]- وقد مضى ذكر ذلك.

٣- ظاهرة القلب المكاني:

وهو تقديم بعض حروف الكلمة على بعض وقد ورد ذلك كثيرًا في لغة العرب، وهو في المعتل والمهموز أكثر منه في غيرهما، ومنه في اللهجات العربية ما نقله بعضهم:

أنهم يقولون: صاقعة في صاعقة.

قال الشاعر:

يَحُلُّونَ بِالْمُقْصُورةِ القَوَاطِع تَشَقَّقُ البُروقُ بِالصَواقع

وعند سائر العرب: صاعقة[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ**﴾ [البقرة: ١٩].

وجمهور أهل اللغة على أن ذلك من القلب والصحيح أن أمثال ذلك لهجة لبعض العرب وهم تميم وبعض ربيعة، وهي قراءة الحسن[3].

وقال الكلابيون: امْضَحَلَّ الشَّيءُ بمعنى ذهب وهي عند باقي العرب اضْمَحَلَّ.

وقالوا: اكْرَهَفَّ في اكْفَهَرَّ... وقالوا: جَبَذَ في جَذَبَ وأَهْبَذَ في أَهْذَبَ[4].

وقالوا في المعتل والمهموز: نَاءَ يَنَاءُ في نَأَى يَنْأَى...

ولَاعٍ وهَاعٍ وشَوَاعٍ في لَاعِ وهَائِع وشَوَائِع، وأَمْهَيْتُ الحَدِيْدَ في أَمَهْتُه، وطَأْمَنَ في طَمْأَنَ، وأَيِسَ في يَئِسَ، وأَيْنُق في أَنْيُق[5]... إلخ.

وتقدم اعتبار بعض الباحثين مثل ذلك التقديم والتأخير في بعض حروف الكلمة على أنه جاء نتيجة التطور الصوتى نشأ على أصل الوضع.

---

(١) المخصص ١٢: ٢٢٠.
(٢) البحر ١: ٨٤، الصاحبي: ٢٩.
(٣) الاتحاف ١٣٠.
(٤) المخصص ١٤: ٢٧.
(٥) شرح الشافية ١: ٢١ وما بعدها.

٤- ظاهرة الإعلال في كلام العرب، وينقسم إلى:

١- إعلال بالقلب والإبدال: ومن أمثلته:

ورد عن أهل الحجاز أنهم يقولون: الوِكَافُ، وبنو تميم الإِكَاف.

ويقول الحجازيون: وكَّدْتُ توكيدًا، وتميم أَكَّدْتُ، وأهل الحجاز يقولون: وَخَذْتُ وتميم تقول: اتَّخَذْتُ، وهذيل تقول إِشَاحٌ وإِعَاءٌ وإِسَادَة وإِفَادَة، وهي معلة عند باقي العرب بالقلب واوا.

وأهل الحجاز يقولون: أَوْصَدْتُ الباب وتميم أَصَدْتُّه[١].

ونقل عن طيء أنهم يفتحون ما قبل الياء من «فَعِلَ» الناقص اليائي فيقولون «بَقَى» في «بَقِيَ» و«بَنَى» في «بُنِيَ» فتتحرك الياء حينئذ ويفتح ما قبلها فتصبح قابلة للقلب والإبدال ألفًا[٢].

وَعَضاءَه -بالهمز- لغة أهل العالية، والعَضَاية عند بني تميم[٣].

٢- إعلال بالحذف والإثبات: ومن أمثلته:

ثَوْبٌ مَصُوُونٌ، ومِسْكٌ مَدْوُونٌ، ورجل مَعْوودٌ، وفرس مَقْوودٌ، ومَقْوُولٌ، ومَصْووغٌ، والقياس حذف إحدى الواوين هنا والصحيح أنها الثانية، وقد نسبوا التامة الواوية إلى تميم. وصحَّحُوا أيضًا اسم المفعول من اليائي العين فقالوا: مَبْيُوع ومَخْيُوط، ومَطْيُوب، ومَعْيُون[٤].

ومن الاختلاف بين لهجات القبائل العربية في الحذف والإثبات ما روي من قراءة الجمهور ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ**﴾ [البقرة: ٢٦]. بياءين والماضي منه: استحيا، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ بعض القراء: يستحي بياء واحدة وهي لغة بني تميم يجرونها مجرى يَسْتَبِي، قال الشاعر:

أَلاَ تَسْتَحِي مِنَّا مُلُوكٌ وَتَتَّقِي ... مَحَارِمَنَا لاَ يَبُوءُ الدَّم بِالدَّمِ

(١) المزهر ٣: ٢٧٦ وما بعدها، أدب الكاتب ٤٦١.

(٢) شرح الشافية ١: ١٢٤ وما بعدها.

(٣) المصباح المنير ٢: ٤٩٨.

(٤) الخصائص ١: ٩٨ وما بعدها.

وأكثرهم على أن المحذوف حينئذ إنما هو العين وليس اللام[1].

٣- الفك والإدغام:

ونعني به: ميل بعض العرب إلى إدغام الحرفين المتماثلين والمتجاورين المتقاربين في بعضهما على حين لا يفعل ذلك فريق آخر من العرب، فإذا كان حرف من هذه الحروف في موضع تسكن فيه لام الفعل فإن أهل الحجاز يفكون الإدغام فيسكنون الثاني بعد أن يحركوا الأول منهما، أما بنو تميم: فيدمغون حينئذ فيسكنون الأول ويحركون الآخر لأنهما لا يسكنان جميعًا وهو قول غيرهم من العرب وهم كثير[2]، ومن ثم قالوا: إن الفك في نحو قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ**﴾ [البقرة: ٢١٧] ﴿**وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي**﴾ [طه: ٨١] و﴿**إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ**﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ**﴾ [النساء: ١١٥] و «وَلْيُمْلِلْ» «يُحْبِبْكُمْ» «يَمْدُدْكُمْ» وقوله تعالى: ﴿**اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي**﴾ [طه: ٣١] وقوله تعالى: ﴿**واغضض من صوتك**﴾ لغة أهل الحجاز، بينما الإدغام في جميع ذلك لغة تميم وبعض قبائل وسط الجزيرة العربية، قال جرير التميمي:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلاَ كَعْبًا بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا[3]

ونسبوا إلى تميم القلب والإدغام في المتقاربين في المخرج من نحو: «مَحُّم» و«مَحَّاؤُلاَءِ» «وَأَلَمْ أَحَدَّ إِلَيْكُمْ»[4].

الظواهر النحوية:

١- ظاهرة الإعمال والإهمال: ومن أمثلته:

أن بعضهم -وهم الكثير- يستعملون «إنَّ» حرفا ناسخًا فينصبون الاسم ويرفعون الخبر إلا أن قومًا من علماء اللغة حكوا أن بعض العرب ينصب بها الجزأين كقوله:

---

(١) البحر ١: ١٢١. (٢) الكتاب ٢: ١٥٩.

(٣) الإتقان ١: ١٣٦، شرح التصريح ٢: ٤٠١.

(٤) ابن يعيش- شرح المفصل ١٠: ١٣٦.

إِذا اسْوَدَّ جُنْحُ اللَّيْلِ فَـلْتَأْتِ وَلْتَكُنْ خُطَاكَ خِـفَـافًا إِنَّ حُـرَّاسَنَا أُسْـدَا

وبالمثل أعملوا أخواتها «ليت ولعل» وقد نسبوا ذلك إلى تميم(١).

وأهمل معظم العرب «إِنْ» النافية حتى قال بعض النحاة:

إن إعـمالـها شـاذ عند بعض العـرب، لكنهـا لغـة حُكِيَتْ عن أهل العـاليـة خاصة(٢).

والعـرب تجري القـول مجـرى الظن بشروط، إلا أن بني سليم خـاصة تجـريه مجرى الظن مطلقًا فيقولون: قَالَ مُحَمَّدٌ زَيْدًا قَائِمًا(٣).

وعامة العرب تنصب بـ«أَنْ» المصـدرية الفعل المضارع إذا أتى بعدها، ولكن نقل أن بعض العرب يرفع ما بعدها تشبيهًا لـها بـ«ما»، وبعض بني صباح يجزمون بها حينئذ(٤).

ومذهب معظم العـرب هو النصب بـ«لن» للفعل المضارع ولكن ذكـر السيوطى أنه قد حكي الجزم بها، وذكروا أن ذلك لغة لبعض العرب، وأنشدوا:

لَنْ يَـخِبِ الآنَ مِـنْ رَجَـــــائك مَنْ حَرَّكَ مِنْ دُوْنِ بَابِـكَ الحَلَقَة(٥)

٢- الاختلاف في الإعراب:

بعض العـرب يلزم المثنى الألف في الأحـوال الثلاثة: الرفع، النصب، الجـر، ويقدر الإعراب حينئذ بحركات مقدرة على الألف، ومنهم من يلزمه الألف والنون أيضًا ولكن يجـعل الحركات ظاهـرة على النون إحراء له مجـرى المفرد(٦)، وعلى ذلك قرأوا قوله تعالى: ﴿إن هذان لساحران﴾(٧) وأعمل الحجازيون «ما» النافية في نحو: مَا هذَا بَشَرًا.

---

(١) المغني: ١: ٢٨٦. (٢) ابن هشام: شذور الذهب: ١٩٦.

(٣) حاشية الصبان على شرح الأشموني ٢: ٣٧.

(٤) ابن يعيش -شرح المفصل ٩: ١٤٣، البحر ١: ١١٨.

(٥) الهمع ٢: ٤. (٦) خالد الأزهري- شرح التصريح ١: ٨٧.

(٧) الصاحبي ٢٩.

وقد جاء القرآن طبقًا لها على حين أهملها التـميميون، وهى أقوى قياسًا، وإن كانت الحجازية أسير استعمالاً[1].

ونقلوا عن بعض العرب أنهم كانوا يقرأون ﴿**وما تنزلت به الشياطون**﴾ وجمهور العرب على «الشَّـيَاطِيْنُ» إجراء له مجـرى غسلين ويقطين في الإعراب بالحـركات على النون[2].

ورووا عن بعض ربيعة أنـهم يقفون بالسكون على نحو: رأيت زيدًا فـيقولون: رأيت زيد، وجميع العرب يقفون حينئذ بإبدال التنوين ألفا، قال الشاعر:

إِلَى الْمَرْءِ قَـــيْسٍ أُطِيْلُ الـسُّـــرَى وَأَخْـــذُ مِـنْ كُلِّ حَيٍّ عُـــصَمْ[3]

ورووا عن تميم أنهم يقـولون: وَهو يعلمْكم «تُوبُوا إلى بَارِئكُمْ» وَمَكْرَ السَّـيْئْ» بالسكون في الجميع وهي قراءة رويت عن أبي عمرو[4].

٣- ظاهرة الاختلاف في صوغ الجملة العربية:

ومن ذلك ما ورد عـن بعض العرب أنهم يقـولون: ضرباني أخـواك وضربوني إخوتك، قال عبد الله بن قيس الرقيات:

تَوَلَّى قِـتَـالَ الـمَـارِقِـيْنَ بِنَفْـسِـهِ وقَـدْ أَسْلَمَـاهُ مُـبْـعَـدُ وَحَـمِـيْمُ

وقال الفرزدق:

وَلَـكِن دِيَـافِـيٌّ أَبُوهُ وَأُمُّـــــــه بِحَوْرَانَ يَـعْصِرْنَ السَّلِيْـطَ أَقَارِبُه[5]

وقيل منه: قراءة من قـرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحُوا المؤْمِنُونَ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ [الأنبياء: ٣].

وقد نسبوا ذلك إلى بعض طيء وأزد شنوءة والحارث بن كعب[7].

---

(١) الخصائص ١: ١٣٠ وما بعدها.
(٢) البحر ٧: ٤٦.
(٣) الخزانة ٢: ٢٦٤.
(٤) الإتحاف ١٣٦، الهمع ١: ٥٤.
(٥) الكتاب ١: ٢٣٦ شرح التصريح ١: ٢٧٧.
(٦) البحر ٦: ٣٩٥.
(٧) مكي بن أبي طالب- إعراب مشكل القرآن- ٢: ٨١.

أما في الجانب الدلالي:

فهو ما نلحظه بوضوح في لغة العرب على شكل الترادف، والاشتراك اللفظي، والتضاد، ويرى بعض علماء العربية الأوائل أن ذلك إنما نشأ نتيجةَ اختلاف اللهجات بين قبائل العرب وأحيائها، فقد تضع إحدى القبيلتين أَحَدَ الاسمين والأخرى الاسمَ الآخرَ للمسمَّى الواحد أو لمعنى من غير أن يكون بينهما اتفاقٌ ثم يشتهر الوضعان في إفادة المعنيين بلفظ أو بلفظين بعد أن يختفي الواضعان أو يلتبس وضعُ أحدهما بوضع الآخر[1]. ومحال أن يكون العربي قد أوقع لفظًا على معنيين متضادَّين بمساواة منه بينهما ولكن أحد المعنيين لحي من العرب والمعنى الآخر لحي غيره ثم سمع بعضهم لغة بعض فأخذ هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء[2].

فمن الأول مثلاً: ما روي أن في العسل ما يقرب من ثمانين اسمًا منها: العَسَل، والضَّرْب، والوَرسْ، والشَّهْد، والماذِيّ، والشَّرَاب، والمزْج، والجَنَي.. ومن أسماء السيف: الصَّارِم، والقَضِيب، والصَمْصَامَة، والحُسَام، والمُذَكَّر، والقَاضِب، والمُهَنَّد، والهندواني.. ومثل ذلك ما روي من ألفاظ تطلق على معاني في مختلف شئون الحياة[3].

ومن الثاني: ما روي من الألفاظ في معان كثيرة: كلفظ العين، والأرض والهلال، وأسماء الطير..

ومن كلام القبائل العربية: ما يقال من لفظ الألفت بمعني الأحمق في كلام قيس وبمعنى الأعسر في كلام تميم، السَّلِيْط: عند عامة العرب الزيت، وعند أهل اليمن دهن السمسم[4]. والهراء: بلغة أهل نجد الفسيل بعينه، وأهل البحرين زعموا أن الفسيل الطلع[5].

---

(١) المزهر ١: ٣٦٩، ٤٠٥ وما بعدها.
(٢) نفسه ١: ٤٠١.
(٣) نفسه ١: ٤٠٧ وما بعدها.
(٤) المزهر ١: ٣٨١.
(٥) ابن دريد- جمهرة اللغة ٣: ٢٠٨.

أما التـضاد: فمن أمثلتـه: ما روي: أن أبا زيد قد روى السُّدْفَـة في لغة تميم: الظلمة، وبمعـنى الضوء عند قيس، ولمقت الشيء: إذا كـتبـته عند عقـيل، وسائر قيس يقولون لمقته: بمعنى محوته.

وحكوا: أن وَثَبَ في لغة أهل اليمن: الجلوس، وأنها في لغة العدنانيين الطفر.

والجُون: الأبيض في لغة حي من العرب، والجون: الأسود في لغة حي آخر ثم أخذ أحد الفريقين لغته من الآخر[1].

****

(١) المزهر ١: ٣٩٤، ٤٠١.